حجة الاسلام : الامام الغزالي

ازمةٌ في الاسلام

لقد علق بالاسلام منذ احتكَّ اتباعهُ الاولون بسكان اسيا الغربية (في العراق وسورية) عدة قواعد ومذاهب فلسفية كان لها اثر عميق في تكييف الفقه الاسلامي . فالمعتزلة في الحقيقة ظاهرة طبيعية لهذا التأثير القديم . ولما جاء الاشعري (٣٣٤ هـ .) وتم انفصالهُ عن حظيرة المعتزلة ، اخذ اتباعهُ المتكلمون يقرعون حجة الفلاسفة ، بالسلاح الذي يحاربونهم به . لكن لم يلبث علماء الدين حتى عجزوا عن الذود عنهُ بسلاح الفلسفة ، فساد بين الطبقات وتتمتر ميل صوفي يرتكز على الالهام لا العقل . هذه هي الحالة التي صادفها الغزالي . فقد عظم الفرق بين جمود المتكلمين وما يأخذون به من القواعد والحدود ، وتطرف الصوفية وما يميلون اليهِ من نبذ كل سلطة او تقليد والاتكال على الالهام . فكان اجلُّ ما اتى بهِ انهُ ادمج العنصرين معاً بادخال بعض مبادئ التصوف المتشة في علم الكلام

وبذلك صد المتكلمين عن نظام التفكير المدرسي من البحث فيما يتعلق باصول الدين كالكتاب والسنة الى البحث في هذه المآخذ نفسها . وهذه لعمري وجهة اصلاحية كبيرة ، تصادفها في جميع الاديان الثانية المتطورة . وقد كانت من ميزات الاصلاح الديني في القرن السادس عشر ، حين تارلوثر وانزابهُ على القواعد الدينية والعقائد الكنسية السائدة حينئذٍ

مع ان الغزالي يعد رسمياً من الطبقة الثانية في الفقه فقد عمل على حطهِ من المنزلة الرفيعة التي كان يشغلها قبل ظهور المتكلمين . وقد لام هؤلاء لجعلهم دين العامة مجرد عقائد مركبة لا غير ، وهو في هذا الاتجاه يتبع خطى امامهُ الشافعي (٢٠٤ هـ) وقد وافقهُ الاجماع على اكثر آرائهِ في الاصلاح وعدَّ (مجدِّد عصرهِ)

وقد أخذ على الغزالي تحقيرهُ علم الفقه وعدم الاعتداد بهِ ، واتخاذهُ الطريقة الصوفية اساساً لاقتباس المعرفة (راجع تهافت ابن رشد (٥٢٠ هـ) . والحقيقة ان الغزالي يجذ العلوم الشرعية ، بيد انهُ لا يجعلها الملجأ الاخير لانها لا تفيد اليقين شأن (الاتصال) الصوفي . والفقهاء بل الفلاسفة ايضاً كابن سينا (٤٣٨ هـ) وابن رشد وهما من اشد الخصوم لهُ كلهم يعترفون بحقيقة مثل هذا الاتصال ، الاَّ انهم يحجبونهُ على الانبياء

والاولياء ، ويقولون بوعورة مسلكه وصعوبة التساهل به . اما الغزالي فيفرق بين علمين ، وهو يشبه القلب بالحوض تصب فيه جداول كثيرة هي انواع العلم بالحواس . لكن في قعره ينبوع يخرج منه ماء زلال اعذب من ماء الجداول وذاك هو العلم بالالهام . وان انت سألت الغزالي عن مصدر هذه القوى في (القلب) اجابك انها هبة ربانية واستشهد بالحديث (ان لربكم في ايام دهوركم نفحات الا فتعرضوا لها) واعطاك برهاناً على ثبوتها الاحلام والكرامات بل النبوة نفسها !!

ولكن يجب الا ننتقص من مكانة الغزالي في التفكير لهذا الاستسلام . فيوجد اليوم بين فلاسفة القرن العشرين من ينحو هذا الاتجاه فيعدّ لهُ ذلك مذهباً فلسفيًّا خاصًّا . واقرب هؤلاء الى الغزالي Mansél الذي يقول بان المعرفة مسألة نسبية وان العقل البشري يعجز لذلك عن ان يدرك او يفكر في امور قطعية لاحد لها . وهذا هو موقف الغزالي بينه حين تقرأ ما بين سطور التهافت وتحسب للفرق بين المؤثرات اللغوية والدينية في الحالتين ، حسابها . ولئن اعترض خصوم منسل بتوهم ان مثله في نظريته هذه كمن بدأ في نشر غصن يقعد عليه ، فالغزالي قد اهتم بدعم مقعده على هذا الغصن بالاستسلام الى الوحي سواء اكان في الكتاب والسنة او في اختبارات الاولياء والصالحين . ولم تقتصر هذه النظرة في الدين وعلاقته بالفلسفة على الغزالي وحده ، لاننا نجد الفيلسوف اليهودي الاندلسي ابن ميمون الذي عاش بعده بنحو قرن يحتفظ بهذا الميل نفسه

ولنا ايضاً ان نقابل الغزالي من حيث نظرياته اللاهوتية بمفكر آخر هو Ritsch من اعلام العصر الحاضر . فانهُ كالغزالي من قبله بثمانية قرون ، يمانع في كل تأثير فلسفي يطرأ على اللاهوت . ويقول بان اساس العقيدة يجب ان يكون مستقى من ظواهر دينية محضة ، لادخل للشك والتفكير فيها . ويجب ان يكون الوحي هو الينبوع الاكبر فاذا ما تعدينا الحد المعيّن في السؤال عن المعرفة وتمادينا باستعمال (كيف ولماذا) نكون قد تجاوزنا حدود المعقولات ، ودخلنا منطقة في ابحاث ما فوق الطبيعة وهي كلمات فارغة لا تجدي في كشف الحقائق فتيلاً

فالغزالي اذن ، لشدة اهتمامه بالآخرة ولاعتداده بعامل الخوف في الدين ، ولاميالهِ الصوفية المبينة سابقاً ، قد اتم ما بدأ بهِ القشيري (٤٦٥ هـ) فجعل الصوفية من الطرق التي لا يشك في عقيدة اهلها . وهو بذلك بداية عصر جديد في تاريخ الاسلام ، كما كان

الاشعري لعلم الكلام من قبله . فالصوفية كنظام في العقيدة وجدت قبل الغزالي وفي ايامه ولكن اقدم الطرق الصوفية المعروفة حتى اليوم ، لم تؤسس الا بعد انقضاء ما ينيف على الخمسين عاماً من وفاته

ومن حسناته انهُ شرح الفلسفة ، وكرر نشر اعتراضاته وانتقاداته عليها حتى الفها العامة . فالغزالي اذن في دفاعه عن الدين ومحاولته خنق الفلسفة ، قرب بالحقيقة ابحاثها المعيبة باسلوبه التصويري البديع من اذهان عامة الشعب الذين كان يكتب لهم . وهو بذلك قد احسن الى الفلسفة من حيث لا يشعر ، في حين انهُ كان يريد لها الاساءة . وهذه احدى النقاط التي يأخذهُ بها خصمه الالد ابن رشد ، فهو يقول انهُ افسد بذلك على العامة معتقدهم السليم ولم يستطع ان يفهمهم شيئاً . والحقيقة انهُ كان لهُ الاثر الكبير ، فيكفيك ان كلتي فيلسوف وفلسفة لم تعد توقظ في المسلم شعور العجب والرهبة التي كان يبعثها في نفسه الجهل والكتمان

والغزالي في اكثر ما اوردناهُ عنهُ لم يكن مبتكراً ، لكنهُ شأن الشخصيات النادرة المؤثرة وجد طريقاً مهملاً فجعلهُ بهمته والميتهِ المسلك المشهور ، والطريق العام

وقد شهر الدكتور Sachau في مقدمة رسالته عن ابو الريحان البيروني (٤٣٠ هـ) نقداً مرًّا على الغزالي قال فيهِ : لو لم يقم الغزالي وامثاله فيخنقوا روح البحث والابتداع الكامنة في العرب ، لكان هؤلاء حقًّا اهل الاختراع والابتكار طرًّا ، ولنجوا من قبل البيروني الجم الغفير . لكن البارون De Vaux اجرى للدفاع عن الغزالي ، فرد قول الدكتور باسرين الاول ان المؤهلات والظروف التي تصحب نبوغ العظماء لا تزال مجهولة لم تصل اليها يد العلم . والثاني ان النابغة الحقيقي يستحيل وان يخضع للرأي العام ومقاييسه مهما بلغت سلطته ، وان ليس اسهل عليهِ من ان يخلص من مثل هذا التأثير ليحيا حياته الخاصة في جوّ ومحيط يكونهما لنفسه . فلو جادت الايام في تاريخ الاسلام بعد البيروني ، بمن كان يحق ان يكون نابغة لما تأخر عن الظهور ابداً

ونختم كلمتنا باغرب ما جرت بهِ المقادير ، فالغزالي الذي جاهد لينبذ التقليد وثار على السلطة ليحرر الاسلام من ربقة الاسر لتسبح الماضي المخيف وظلام الجمود ، اصبح هو بعينه بعد سنين قليلة من موته ، سلطة وثقة يل (حجة للاسلام) يستند اليهِ !

القدس شكري مهتدي

ب . ع